الخطاب الحجاجي في النثر الجاهلي

Pilgrim speech in pre-Islamic prose

أ.د ياسر علي عبد الخالدي

م.م أسماء محمد صاحب معلة

Asma'a Muhamad Sahib Mueala

جامعة المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

Asmaa١٩٧٣@gmail.com

٠٧٨١١١٠٩٢٠١

ملخص البحث

للخطاب الحجاجي أهمية خاصة في تحليل الخطابات الإنسانيّة وتفكيكها من وجهة نظر المقصد المتنوع المتلفظ الحجاجي؛ حيث يعمل هذا الخطاب على تشريح الشيفرة الخطابيّة بغرض فهم الرسالة الموجهة نحو المتلقي، وهنا في هذا البحث يتوجب على الباحثة الإجابة عن السؤالين الآتيين:

١- ماهية الخطاب الحجاجي ؟

٢- كيف تجلّى الخطاب الحجاجي في نثر ما قبل الإسلام تحليليا ؟

كلمات مفتاحيّة: مفهوم الخطاب، أنواعه ، ألوانه .

Research

Summary Pilgrim speech has special importance in analyzing and dismantling human discourses from the point of view of the diverse, articulated pilgrimage; Where this letter works to dissect the rhetorical code in order to understand the message addressed to the recipient, and here in this research the researcher must answer the following two questions:

١- What is the Hajjaji speech?

٢- How did the Hajjaji rhetoric manifest itself in analytical pre-Islamic prose?

Key words: the concept of speech, its types, its colors.

أولا: مفهوم الخطاب

يواجه النقاد إشكالية الإجابة عن سؤال: هل النص و الخطاب يحملان نفس المعنى أم بينهما اختلاف؟ لاشكّ أنّ هناك من يرادف بينهما ، و كذلك من يميز بينهما على أساس أنّ الخطاب مرتبط باللفظ و السياق التفاعلي في حين أن النص يتجرد من هذا السياق بشكل كلي، والخطاب يتميز بخواص نصيّة بوصفه فعلا انبثق في وضعية خاصة مثل المستمعين و الزمان و المكان، و لكن النص هو نتاج بدون سياق، وهذا يعني أنّ لفظة الخطاب تستمد مشروعيتها من طبيعة المخاطب و السياق الذي تدور فيه حيث تكتسب طبيعة معرفية شاملة تتجاوز الجزئية عند الكلمات و الأسلوب، و الخطاب يندرج عبر منظومة معرفيّة تعمل على استثمار الخطاب الثقافي في سياقه المنتج لآلياته.

والتقدم الذي أحرزته الثقافة العربية عبر تقنياتها الأسلوبية تصب في بؤرة الخطاب، ومن هنا ليس من السهل التعريف بالخطاب أو البحث عن مفهوم جامع ومانع له؛ فتحديده يبقى مسألة نسبية حيث يعرّفه كل باحث من وجهة نظره الخاصة التي ترتبط بالخصوصية المعرفية، وتؤكد الدراسات على أن مفهومه غير متفق عليه لتعدد الموضوعات التي يطرحها، و تسعى الباحثة جاهدة في البحث عن جذور هذا المصطلح سواء عربيا أو غربيا للوصول إلى مفهوم الخطاب الأدبي.

وللخطاب مفهومان:

١- **المفهوم الأوّل:** يمتاز بالأصالة و الثبات، و قد عرفته العرب وورد في القرآن الكريم و الحديث الشريف، وفي القرآن الكريم يتجلّى الخطاب في آيات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "[١].

وهنا اقترن الخطاب عند ذكر الحج ومناسكه في لفظة (الناس) حيث المخاطب هنا هم المسلمون على مر العصور, حيث كانت بلاغة الخطاب الإلهي في نفس إبراهيم عليه السلام هي القوة المحركة لإمداده بالطاقة اللازمة لتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى.

وأمّا في السنة النبوية هو خطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع: " أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً , أيّها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، كحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وأن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون "[٢].

وفي هذا الخطاب النبوي يوجه النبي حديثه و وصاياه إلى الأمة الإسلاميّة عامة الحاضرة مكانياً، واللاحقة إلى يوم الدين حيث أوصاهم بعدم الاعتداء على حرمات الله، وكذلك أوصاهم بالأمانة لما لها من تأثير في الثقافة الإسلامية وكذلك نهاهم عن الظلم , وهنا يخاطب المؤمنين رغم علمه بقوة إيمانهم وإدراكهم لتلك الوصايا، ولكن من شدة حبه لهم وحرصه عليهم أراد تثبيت تلك الوصايا في نفوسهم وتذكيرهم بها.

٢– **المفهوم الثاني**: الخطاب ذو طبيعة تركيبية يتعدى بها الدلالة اللغويّة إلى الدلالات الفلسفيّة والسياسية والإعلامية، فلو عدنا للمعاجم العربية وجدنا أن لفظة خطاب بكسر الخاء وتخفيف الطاء هو (مراجعة الكلام)[٣]، والخَطْبُ "الأمر يقع؛ وإنما سُمّى بذلك لما يقع فيه من التخاطب والمراجعة " [٤]، وخاطبه أحسن الخطاب: واجهه بالكلام[٥]، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان أي وجه أحدهما كلاماً للآخر[٦].

وعند النظر في التراث الثقافي في نثر ما قبل الإسلام نجد أنها تأثرت كثيرا بفلسفة و خطاب الثقافات الأخرى؛ و خاصة الثقافة اليونانية و ثقافة الروم و الفرس حيث استمدت الثقافة العربية الكثير من آليات الخطاب الحجاجي لديهم ثم قامت بتطويعها كي تلائم الحياة العربية، ومن هؤلاء الذين شاركوا في هذه المهمة مجموعة من مثقفي المسلمين و علمائهم مثل الفارابي و ابن سينا " وهو ما جعل للحجاج حظا لافتا في العلوم العربية "(٧)،

وترى الباحثة أنّ الخطاب هو مراجعة الكلام و الوصول إلى إقناع المستمع بفكرة خاصة كان رافضا أو متشككا لتلك الفكرة و المسيطرة على ذهن المستمع ثم تحل مكانها " الفكرة التي جيء بالحجة من أجل إثباتها "(٨)، وهو أيضا المراجعة بالكلام أو ما يخاطب به الرجل صاحبه؛ ونقيضه الجواب وهو قطع كلامي يحمل معلومات يريد المرسل (المتكلم أو الكاتب) أن ينقلها إلى المرسل إليه (السامع أو القارئ)، ويكتب الأول رسالة ويفهمها الآخر بناءً على نظام لغوي مشترك بينهما، ويعرفه بيارشاردو هو " ما تكون ملفوظ ومقام خطابي وأن الملفوظ يستلزم استعمالاً لغوياً عليه إجماع، أي قد تواضع عليه المستعملون للغة، وأن هذا الاستعمال يؤدي دلالة معينة" (٩).

و كذلك عرفته جوليا كريستيفا بأنه " كل لفظ يحتوي داخل بنياته الباعث والمتلقي مع رغبة الأول في التأثير على الآخر" (١٠).

وترى الباحثة تبعا للقول الدارج أن اللسان آلة البيان حيث تتجلى تلك الدلالة الفلسفية في أن تعدد و تنوع الخطاب الحجاجي ركيزة أساسية في الثقافة العربية و الثقافات الأخرى، و كذلك لم تكن دراسة الخطاب الحجاجي حديثة بل توغلت في مؤلفات أرسطو و الثقافة اليونانية التي رصدت آليات الخطاب و الموروث الفكري الضخم، و كذلك قد استمدّ الخطاب قوته من البلاغة و الفصاحة

العربية التي عاشها العربي فيما قبل الإسلام كوسيلة أساسية في الإقناع في الثقافة العربية و ذلك في إطار توفر معايير الخطاب (الاستمالة – التأثير – الإقناع).

ثانياً: الخطاب في الثقافة العربية

قد أورد الجاحظ في كتابه (البيان و التبيين) العديد من خطباء ما قبل الإسلام من غير ترتيب منهم على سبيل المثال لا الحصر:

– **كعب بن لؤي:** قلت " وعليه عمود النسب، و إليه ذاك الحسب المنير المنيف، الضويّ، فاض عليه ذلك النور الساطع و استفاض عنه ما يسر المسامع و كفاه شرفا مرور النسب الصميم على جادته " (١١)، و قال الجاحظ عن كعب أنه أول من خطب يوم عروبة و هو الجمعة و قد جمع الناس و ذكر لهم شأن النبي و دنو أوان مبعثه، و بشر به و نحر لهم يوم ذاك الجزر و أطعمهم.

– **الزبير بن بكار:** كانت يخطب في قريش قائلا " أما بعد، فاعلموا و تعلموا، إنما الأرض مهاد و الجبال أوتاد و السماء بناء و النجوم علائم يأمرهم بصلة الرحم و يبشرهم بالنبي و يقول: حرمكم يا قوم عظّموه فسيكون له نبأ عظيم و يخرج منه نبي كريم "(١٢)

فيما لا يتبعد مفهوم الخطاب عند علمائنا القدامى كثيراً عما قررته المعاجم العربية، ومما يساعد على معرفة دلالة الخطاب في الثقافة العربية وروده في القرآن الكريم في عدة مواضع، فقد قيل أنه " توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نقل إلى كلام موجه نحو الغير للإفهام، وقد يُعبر عنه بما يقع به التخاطب" (١٣).

و ترى الباحثة أن الخطاب مبني على الخطابية و التلفظية، و هو عبارة عن ألفاظ متصلة بالسياق الوظيفي سواء شفويا أو كتابيا، وهو عبارة عن التعبير بصيغة جمالية فنية للمضمون ضمن الإطار النثري .

ثالثاً: الخطاب في مفهوم الثقافة الغربية

لم يكن الاهتمام بالخطاب وليد اللسانيات الحديثة بل كانت له جذور وامتدادات في الدارسات القديمة، وكانت البدايات بنحو الجملة، وقد حظي الخطاب باهتمام الكثير من الفروع، كالفلسفة واللسانيات والفقه والنقد، واختلفت الرؤى بين هذه الفروع من نواحٍ كثيرة، فمن ناحية المفهوم لا نجد اتفاقاً حول مفهوم محدد وشامل.

فقد أعطت كل نظرية مفهوماً خاصاً للخطاب يختلف عن مفهوم النظريات الأخرى، من الناحية الشكلية اختلفوا حول العناصر المكونة له، ودور كل منها في إنتاجه، واهتمت الدراسات القديمة بعنصرين مكونين له هما المخاطِب والمخاطَب عند القدامى أو المرسل والمرسل إليه في الدراسات اللسانية الحديثة[١٤]، والتي أضافت عناصر أخرى لمكونات الخطاب، وهي السياق وماله من دور في تشكيله، وكذا المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب وما لها في الأخرى من دور، كما اهتمت اللسانيات الحديثة وبخاصة اللسانيات التداولية بالخطاب الذي شكل اهتمامها الأكبر مع التركيز على عنصر التداول فيه والمقصدية من وراء إنشائه، كما ركزت اللسانيات التداولية على تحديد الأهداف التي من أجلها أنشئ الخطاب، وكيفية استخدام اللغة والتعامل معه[١٥].

وقد اختلف كثير من الدارسين في تعريف الخطاب، فقد عرفه (سوسير): الخطاب مصطلح مرادف لـ (الكلام)[١٦]، أما (هاريس) فقد كان له رأي أخر في تعريف الخطاب حين قال: " الخطاب وحدة لغوية ينتجها الباعث (المتكلم) تتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة[١٧]، وله تعريف أخر أيضاً: " أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع وعند الأول فيه نية التأثير وفي الأخر بطريقة معينة "[١٨].

والخطاب الحجاجي هو مجموعة من الجمل والفقرات والمتواليات والمقاطع المتفاعلة فيما بينها " اتساقاً وانسجاماً وحوارية بواسطة مجموعة من الروابط والعلميات والعلاقات المنطقية والبرهانية والاستدلالية والحجاجية بغية التأثير والإقناع والاقتناع "[١٩], وتستعمل في الخطاب الحجاجي عدة وسائل وآليات واستراتيجيات من أجل إقناع الآخر, وهذا يعني أنّ هذا الخطاب الحجاجي هو خطاب نقدي هدفه بيان حجاجيّة الخطاب ورصد الحوار النصي فيه سواء كان ذلك الحجاج صريحٌ أو خفيٌ مضمر.

وقد تعددت تعريفات الخطاب الحجاجي في الثقافة العربية والغربية على سبيل المثال لا الحصر:

١- **عربياً:** قد عرّف أبو بكر العزاوي الخطاب الحجاجي بأنه " هو مجموعة من الأقوال والجمل ومجموعة من العلائق الدلالية المنطقية القائمة بينها أو بتعبير حجاجي هو مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق, فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو المضادة لها, والدليل يفضى إلى نتيجة والنتيجة تفضى إلى دليل آخر, وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه, وبعبارة أخرى فإنّ الأقوال والجمل تقوم بينها علاقات منطقية ودلالية مثل الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض و كلها علائق حجاجيّة استدلالية, ومجموع هذه العلائق هو

ما يكون البينة المنطقية للنص أو للخطاب المقصود, وهو ما نسميه عادة بمنطق الخطاب أو المنطق الطبيعي "[٢٠].

٢- **غربياً:** تعددت تعريفات النقاد الغربيين للخطاب الحجاجي منهم روث أموسي التي تقر أن " الحجاج يخترق كل الخطابات بدرجات و كيفيات مختلفة؛ و من ثم فلا وجود لخطابات خالية من الحجاج، إلا إذا افترضنا وجود خطابات تمثل إجابات على ما هو بديهي، لا يثير أي اختلافات؛ ففي هذا الحال ينتفي الحجاج و بناء عليه، فإنها تدعو إلى أن نستبدل بالتقابل الإشكالي بين الحجاجي و اللاحجاجي، تصورها يقترح مفهوما للحجاج متنوع المظاهر، يتشكل من قطبين متطرفين تمثل أحدهما الخطابات التي تقوم على اصطدام الدعاوى المتعارضة في حالاتها القصوى و تمثل القطب المعاكس الخطابات السردية و الإخبارية التي تبدو مجردة في الظاهر من أي إقناعي، و إنما يحصل تأثيرها في الآخر نحو خفي، و بين هذين القطبين تقوم خطابات حجاجية مختلفة من قبيل الخطابات التي يروم فيها الخطيب حمل المتلقي على الإذعان لدعوى ما، و الخطابات التي تقوم على الحوار و التفاوض "[٢١].

و ترى الباحثة أنّ الخطاب الحجاجي فحواه التأثير العاطفي على المتلقي و جذبه وجدانيا و ذهنيا، و كذلك العمل على استمالة الغير مخاطب و التأثير عليه عاطفيا مثل الخطاب السردي و الخطاب الشعري و الخطاب السياسي،

رابعا: ألوان الخطاب

١- **خطاب أجزاء الجسم**

قد خاطب الناثر فيما قبل الإسلام القلب و اللسان و العين مركزا عليها أكثر من باقي أعضاء الجسم الأخرى، و ربما لهذا التركيز دلالات و إشارات عميقة بوصف تلك الأجزاء مهمة في مخاطبتها و اتصالها بالجانب العاطفي و الإنساني، و هذا على سبيل المثال المثل القائل "

تجوع الحرة و لا تأكل بثدييها "[٢٢] ، حيث يقال في صيانة النفس و بعدها عن المكاسب الخسيسة، و كذلك المثل القائل " إنما المرء بأصغريه قلبه و لسانه "[٢٣] ، و هذا مجاز عن أهم أعضاء الجسد الممثلة في اللسان الذي له تأثير كبير في المجتمع، و كذلك القلوب الطيبة أو الخبيثة كيف تجعل الإنسان يتعامل مع قومه، وكذلك قول عامر بن الظرب العدواني في الرد على خاطب ابنته صعصعة بن معاوية " يا صعصعة إنك جئت تشتري مني كبدي..." [٢٤] ثم رد عليه " أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم "[٢٥]، و كذلك خطبة الوعاظ المأمون الحارثي الذي خطب قومه قائلا: " أرعوني أسماعكم و أصغوا إليّ قلوبكم... يأيها العقول النافرة و القلوب النائرة... لو كشفت الأغطية عن القلوب و تجلت الغشاوة عن العيون.."[٢٦].

٢- خطاب الطبيعة

وليس أشهر من سجع الكهان في خطاب زبراء كاهنة بني رئام إذ قالت " واللوح الغافق و الليل الغاسق و الصباح الشارق و النجم الطارق و المزن الوادق "[٢٧]، و كذلك في المحاورة بين معبد بن زرارة و عمرو بن هند و يستغفره لقومه... فقال له عمرو: من أين أقبلت أيها الراكب ؟ قال: من بلد سماؤه غبراء ، و كذلك خطبة الوعاظ المأمون الحارثي في قوله مخاطبا الطبيعة مجازيا " إن فيما ترى لمعتبرا لمن اعتبر، أرض موضوعة و سماء مرفوعة و شمس تطلع و تغرب و نجوم تسري فتعزب "[٢٨] ، و كذلك خطبة قس بن ساعدة الإيادي " ليل داج و نهار ساج و سماء ذات أبراج و أرض ذات فجاج و بحار ذات أمواج... إن في السماء لخبرا و إن في الأرض لعبرا "[٢٩]

٣- خطاب الماضي و المستقبل

المثل القائل (إن غدا لناظره قريب) فهذا مثل يقال في التريث و الانتظار لتحقيق الأمل، لاشك أنّ البعد النفسي للناثر يتدخل في أسلوبه الذي يتعامل به في واقعه، و من هذه الأشياء الرؤية التفاؤلية للأشياء، وكذلك إخبار قس بن مساعدة الإيادي في خطبته المشهورة " ونجوم تزهر و بحار تزخر.. وكل ما هو آت آت "[٣٠] حيث يعرض قس هذا التدبر في خلق الله الدال على وجوده في حياتنا اليومية، وكذلك في قوله " من عاش مات و من مات مات.. ما بال الناس يذهبون و لا يرجعون.. لا يرجع الماضي إلينا و لا من الماضين غابر"[٣١]، و هنا يقوم قس بإرشاد قومه و وعظهم حتى ينتبهوا و يعملوا لما ينتظرهم.

٤- خطاب الحيوان

كان للحيوان في الحياة الجاهلية دور كبير بوصفها وسيلة نقل، و كذلك سيد الموائد، وهذا جعل الناثر يربط بين ما يريد توصيله من حكم و مواعظ مستخدما إياه، و مثال على ذلك المثل القائل " أطولُ ذَمَاءً مِن الضَّبِّ: أي أن الذماء ما بين القتل إلى خروج النفس ولا ذماء للإنسان، ويقال الذماء بقية النفس وشدة انعقاد الحياة بعد الذبح، وهشم الرأس والطعن الجائف والتامور، أيضا بقية النفس وبعضهم بفصح عنه فيجعله دم القلب الذي ما بقي الإنسان والضّبِّ يبغ من قوة نفسه أنه يذبح، فيبقى ليلته مذبوحاً مفرى الأوداج ساكن الحركة ، ثم يطرح من الغد في النار فإذا قدروا أنه نضج تحرك حتى يتوهموا أنه قد صار حياً ، وأنه كان في العين ميتاً "[٣٢].

وكذلك المثل القائل " الظِّبَاء على البَقَرِ: أي أن يُضرب عند انقطاع ما بين الرجلين من القرابة والصداقة، وكان الرجل في الجاهلية إذا امرأته الظباء على البقر بانت منهم كان عندهم طلاقاً،

ونصب الظباء على معنى اخترت أو أختار الظباء على البقر كناية عن النساء ومنه قولهم جاء يجرّ بقره أي عياله وأهله "[٣٣].

وكذلك قد تجلى هذا الخطاب في الأمثال في صفاتٍ تعبر عن الإنسان ولكن ضمن الإطار المجازي, ومن هذه الأمثلة:

١- أجهل من جمار

٢- أجبن من نعامة

٣- أحظر من غراب

٤- أحرص من نملة

٥- أحسن من الطاووس[٣٤]

ولعل الاستعانة بهذه الأمثال ما فيها من صفات تعتبر رغبة في الاقتراب أو الابتعاد بمعنى التحذير منها حيث تأتي تبعاً للحرية التي يشعر بها قائل المثل تجاه كائنات لا يخشى عاقبة ذكرها, بل يبحث عن رمز يحمل مدلولات الإشارة إليها, وقد بلغ بالناثر " من شدة إعجابه أو نفوره من صفاتٍ فيها أن تسمى ببعض أسمائها "[٣٥]

و ترى الباحثة أنه لم تخلُ حياة الجاهلي الأدبية نثريا من خطاب الحيوان، حيث استخدم الناثر الحيوان مجازيا للتعبير عن موقف معين أراد إبرازه أو التعبير عنه حيث البيئة التي خلقت علاقة قريبة بين الناثر و الحيوان حيث يتألم معه و يتعاطف معه، و ذلك بجعلها رموزا لمعنى خاص يسود في ذاتية الناثر.

وهنا ترى الباحثة أن المجاز يستعمل في الحجاج ليدخل التركيب أو الجملة " في صور جديدة في محيطه انطلاقاً من تركيب ونسج المعطيات الواقعية بطريقة إبداعية مما يجعل من هذه الصورة محط اهتمام، تدفع السامع إلى تصورها من خلال تركيبه وأنسجته الخاصة لواقع او حقائق أخرى. فتجعله بذلك يشترك مع المتكلم في إبداعه؛ وهو نوع من التوافق الذي يتطلب الحجاج " [٣٦]، و هنا لا نجد أوجز من الأمثال فيما قبل الإسلام حيث أنّ كل مثل موجز ورائه عبرة و قصة منها أمثال لقمان التي ظلّت تدور على ألسنة المؤرخين و العلماء ووصفه بالحكمة و الدهاء و الرياسة حيث قال العلماء عنه أنه " عاش عمر سبعة نسور و أن كل نسر منها عاش ثمانين سنة و كان لبّد آخرها و به ضربوا المثل في طول العمر فقالوا (طال الأبد على لبد) و نسبت إلى لقمان في عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة و الاعتبار " [٣٧]، وهذا مثل كلماته قليلة لكنها معبرة عن طول العيش و العمر.

و كذلك ترى الباحثة أنّ ميار قد اتفق مع أستاذه بيرلمان حول أهمية الصور البلاغية في الخطاب الحجاجي؛ إذ أن ميار يعد البلاغة لها الدور الفعال في الحجاج وخاصه المجاز، حتى ذهب إلى أبعد من ذلك حيث " أنه يعتبر كل بلاغة حجاجاً وبالعكس، أي أنه – بعبارة أخرى– يطابق بين المفهومين إذ هما – الحجاج والبلاغة – يهدفان في نظره إلى تضيق شقه الخلاف بين المحورين والمتخاطبين أو إلغائها " [٣٨]، وقد ركز في هذا الجانب على الصورة المجازية ومالها من أهمية في إقناع المتلقي وبالتالي تقريب المسافة بينه و بين المتكلم والاتفاق مع الأخير حول وجهة نظر؛ وهذا ما نجده في تعريف ميار للمجاز ودوره الحجاجي فيه فهو " ينشيء المعنى ويصدم كل

ما لا يشارك المتكلم وجهه نظره، وهو بذلك وسيلة التعبير عن الأهواء الانفعالات والأحاسيس التي تمثل صورا من الإنسان، مثلما المجاز صورة من الأسلوب " [٣٩].

ويولي مايير " أهمية قصوى للبلاغة وصورها المجازية في التخاطب، لأن هذه الصور تعمل على تأسيس فعل الحجاج؛ فيصبح الحجاج ما تنتجه البلاغة من صورة بيانية " [٤٠]؛ لأن الإنسان يستخدم عبارات يريد من ورائها إبراز الفكرة أو تأكيدها أو إلغائها، وهذا يبرز " ما يفهمه الإنسان أو يؤمن به أو يعتقد به بأشكال متعددة من السلطة المادية والمعنوية والقولية والمجازية " [٤١]، ويمكن القول أن النظرية المجازية تأسست من خلال مفاهيم هي "عبارة عن ثنائيات متقابلة يتشكل بها القول الحجاجي منها: الحقيقة والمجاز والافتراض واليقين والاستعمال والابتكار و السلطة المجازية والسلطة المادية " [٤٢].

وهذا الرأي نجده في عمق تراثنا العربي، والبلاغيون العرب أدركوا الطابع الحجاجي للمجاز بالضرورة التي يعدل فيها عن التصريح إلى التلميح، ويرى الجاحظ " إن من البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها؛ إذا كان الإفصاح أوعر طريقة وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ من الدرك وأحق بالظفر " [٤٣].

و كذلك المثل الجاهلي القائل – يعتبر أبلغ المجاز – (وافق شنّ طبقة) كناية عن التوافق الفكري و الروحي بين الأزواج حيث قال الشرقي بن القطامي " كان رجل من دهاة العرب و عقلائهم يقال له شَنّ، فقال: والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي، فأتزوجها فبينما هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطريق، فسأله شنّ: أين تريد ؟ فقال: موضع كذا، يريد القرية التي يقصد لها شن، فرافقه فلمّا أخذا في مسيرهما، قال له شنّ: أتحملني أم أحملك ؟ فقال له الرجل: يا جاهل أنا راكب و أنت

راكب، فكيف أحملك أو تحملني ؟ فسكت عنه شنّ، وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا هما يزرع قد استحصد، فقال له شنّ: أترى هذا الزرع أكل أم لا ؟ فقال له الرجل: يا جاهل، ترى نبتا مستحصدا، فتقول: أتراه أكل أم لا ؟ فسكت عنه: حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة، فقال شنّ: أترى صاحب هذا النعش حيا أم ميتا ؟ فقال له الرجل: ما رأيت أجهل منك، ترى جنازة فتسأل عنها: أميت صاحبها أم حي ؟ فسكت عنه سن، و أراد مفارقته، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله، فمضى معه و كانت للرجل ابنة يقال لها طبقة، فلمّا دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه فأخبرها بمرافقته إياها و شكا إليه جهله و حدثها بحديثه فقالت: يا أبه، ما هذا بجاهل أمّا قوله أتحملني أم أحملك فأراد: أتحدثني أم أحدثك حتى تقطع طريقنا، أما قوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا فإنما أراد: أباعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا، أما قوله في الجنازة فأراد: هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا، فخرج الرجل فقعد مع شنّ: فحادثه ساعة، ثم قال له: أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه ؟ قال: نعم، ففسره فقال شنّ، ما هذا من كلامك فأخبرني من صاحبه ؟ قال: ابنة لي، فخطبها إليه، فزوجه إياها و حملها إلى أهله فلمّا رأوهما قالوا: وافق شنّ طبقة فذهبت مثلا "[٤٤]

و ترى الباحثة أنّ الحقيقة التي توصل لها البلاغيون العرب هي أن المجاز أبلغ من الحقيقة؛ ومع ذلك بقيت تحليلاتهم لهذا الأمر متفاوتة، فمنهم من اكتفى بتقرير أفضلية المجاز كابن رشيق الذي قال: " والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة؛ وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع ما عدا الحقائق في جميع الألفاظ؛ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز لاحتمال وجوه التأويل؛ فصار التشبيه والاستعارة وغيرها من محاسن الكلام داخلة شيء تحت المجاز" [٤٥].

ولو عدنا إلى الدراسات العربية الحديثة سنجد أن طه عبد الرحمن قد اتفق مع ميار في دور المجاز في الحجاج بقوله " فلا حجاج بغير مجاز" [٤٦]، أما الدكتور عبد السلام عشير فقد اتفق معهما نوعاً ما بتدرجه إلى أن وصل إلى نتيجته الحتمية حيث يقول: " وأما المجاز فيؤدي إلى الافتراض، والافتراض يؤول إلى الجدل والنقاش وإلى التعارض الخصب الذي ترجمه الحجاج " [٤٧].

وترى الباحثة أنّ المجاز أساس الحجاج من حيث الثالوث الخطابي: الملتقي والمتلقي والرسالة، فكيف يكون تعبير المتكلم وما يبثه من أحاسيس ومشاعر وما يفهمه القارئ؛ ومن ناحية أخرى كيفية تزيين الخطاب بالصور البلاغية و المجاز المؤثر.

الهوامش

١- القرآن الكريم: سورة الحج، آية ٢٧.
٢- صحيح مسلم: كتاب الحج (٢١٨/١٤٧) – باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم.
٣- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط٢، ٣٩٥٢، مادة (خَطّبَ).
٤- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار الإسلامية، ١٩٩٠م، مادة (خَطَبَ).
٥- أساس البلاغة: محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تح: عبد الرحيم محمود، دار الكتب المصرية، ١٩٥٣م، مادة (خَطَبَ).
٦- لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، مادة (خَطَبَ)، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة، دار الدعوة، تركيا، ط٢، ١٩٨٩م، مادة (خَطَبَ).
٧- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧، ص٣٨.
٨- الحجاج في النص القرآني سورة الأنبياء نموذجا: إيمان درنوني، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر، إشراف:الجودي مرداسي، ٢٠١٢، ص١٥.
٩- الأسلوبية في النقد العربي الحديث (دراسة في تحليل الخطاب): فرحان بدري الحربي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٩.
١٠- المرجع نفسه: ص٤٠.
١١- تاريخ اليعقوبي: ج١، ص٢٠٦، كعب بن لؤي بن غالب، جد جاهلي، من سلسلة النسب النبوي، كان عظيم القدر عند العرب حتى أرخوا بموته إلى عام الفيل.
١٢- الأبصار في ممالك الأمصار: ابن فضل الله العمري، تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١٣، ٢٠٠٤، ص١٨٥.
١٣- كشاف اصطلاحات العنوان: محمد علي التهانوي (ت ١١٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٥٨، ص٥/٢.
١٤- تحليل الخطاب الأدبي دراسة تطبيقية: إبراهيم صحراوي، دار الآفاق، الجزائر، ط١، ١٩٩٩، ص٩.
١٥- المصدر نفسه: ١٠.
١٦- المصدر نفسه: ص٤٠.
١٧- آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان للشنقيطي تحديد المفاهيم النظرية: سعد بولنوار، رسالة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ص٥٨.
١٨- المرجع نفسه: ص٥٨.
١٩- حجاج الخطاب أو الخطاب الحجاجي: جميل حمداوي، صحيفة المثقف، العدد ٤٩٣٤، الاثنين ٢٠٢٠/٣/٩.
٢٠- حوار حول الحجاج: أبو بكر العزّاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، طبعة ٢٠١٠، ص٣٨/٣٧.
٢١- في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات: محمد مشبال، كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٧، ص٦٠.
٢٢- شوقي ضيف : العصر الجاهلي – مرجع سابق – ص٤١٤
٢٣- المصدر نفسه : -٤١٥
٢٤- المصدر نفسه : ص٤١٥
٢٥- المصدر نفسه : ص٤١٥
٢٦- المصدر نفسه : ص٤١٦
٢٧- المصدر نفسه : ص٤٤٤
٢٨- المصدر نفسه : ص٤٤٥
٢٩- المصدر نفسه : ص٤٤٧
٣٠- المصدر نفسه : ص٤٥٥.
٣١- المصدر نفسه : ص٤٥٩

٣٢- أبا الفضل النيسابوري (الميداني): مجمع الأمثال – المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة – ١٩٨٧ – ص ٤٥٣.
٣٣- أبا الفضل النيسابوري: مرجع سابق – ص٤٦٠
٣٤- الميداني: ص٤٠١
٣٥- الأمثال العربية القديمة ، عفيف عبد الرحمن – المجلة العربية للعلوم الإنسانية – ص ٤٢- ٤٥
٣٦- مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج،: عبد السلام عشير عندما نواصل نغيّر ، أفريقيا الشرق، المغرب - ص١٢٠
٣٧- العصر الجاهلي ، شوقي ضيف – ص ٤٠٦
٣٨- الحجاج في البلاغة المعاصرة ، سالم محمد الأمين - ١٣٦
٣٩- المصدر نفسه: ١٣٩
٤٠- أهم نظريات الحجاج : شكري مبخوت - ص ٣٥١
٤١- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية : عبد الله هولي - ص٣٦
٤٢- المرجع نفسه: ٣٦-٣٧
٤٣- البيان والتبين: ٣٦/١
٤٤- العصر الجاهلي : شوقي ضيف – ص٥٤٥
٤٥- العمدة: ٢٦٨/١
٤٦- اللسان والميزان أو التكاثر العقلي: ٢٣٢
٤٧- عندما تتواصل نغير: ٢٠٩

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- أبا الفضل النيسابوري (الميداني): مجمع الأمثال – المعاونية الثقافية للآستانة الرضوية المقدسة – ١٩٨٧.

٢- الأبصار في ممالك الأمصار: ابن فضل الله العمري، تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١٣، ٢٠٠٤.

٣- أساس البلاغة: محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تح: عبد الرحيم محمود، دار الكتب المصرية، ١٩٥٣م.

٤- الأسلوبية في النقد العربي الحديث (دراسة في تحليل الخطاب): فرحان بدري الحربي، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٥- آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان للشنقيطي تحديد المفاهيم النظرية: سعد بولنوار، رسالة دكتوراه، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب واللغات، الجزائر.

٦- تاريخ اليعقوبي: ج١، ص٢٠٦، كعب بن لؤي بن غالب، جد جاهلي، من سلسلة النسب النبوي، كان عظيم القدر عند العرب حتى أرحوا بموته إلى عام الفيل.

٧- تحليل الخطاب الأدبي دراسة تطبيقية: إبراهيم صحراوي، دار الآفاق، الجزائر، ط١، ١٩٩٩.

٨- حجاج الخطاب أو الخطاب الحجاجي: جميل حمداوي، صحيفة المثقف، العدد ٤٩٣٤، الاثنين ٢٠٢٠/٣/٩.

٩- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧.

١٠- الحجاج في النص القرآني سورة الأنبياء نموذجا: إيمان درنوني، رسالة ماجستير، جامعة الحاج خضر، إشراف: الجودي مرداسي، ٢٠١٢.

١١- حوار حول الحجاج: أبو بكر العزّاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٠.

١٢- صحيح مسلم : كتاب الحج (٢١٨/١٤٧) – باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم.

١٣- العصر الجاهلي: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط١١، د.ت
١٤- عندما نتواصل نتغير/ مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل و الحجاج: عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠١٢.
١٥- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) ، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران ، ط٢، مادة (خَطّبَ).
١٦- في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات: محمد مشبال، كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٧.
١٧- كشاف اصطلاحات العنوان: محمد علي التهانوي (ت ١١٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٥٨.
١٨- لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١هـ)، مادة (خَطَبَ)، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة، دار الدعوة، تركيا، ط٢، ١٩٨٩م.
١٩- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الدار الإسلامية، ١٩٩٠م.
٢٠- مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: عبد السلام عشير عندما نواصل نغيّر، أفريقيا الشرق، المغرب.